

مجمع اللغة العربية (دمشق)
مؤتمر (نحو رؤية معاصرة للتراث)
22-26 ذي القعدة 1430هـ/9-13 تشرين الثاني 2009م

دور الحضارات القديمة في التراث العربي
قبل الإسلام وبعده

الدكتور محمد محفل

1- من البعثة حتى الرشيد والمأمون (1-3هـ/7-9م)

2- ثقافة كونية

3- ما أخذه العرب عن الأمم الأخرى

أ- في اللغة

ب- في الفن العمارة

ج- في الكتابة

د- في الفلسفة والعلوم

4- ثقافتان وعالمان

5- الخلاصة

6- المصادر

1- من البعثة حتى الرشيد والمأمون (القرن 1 هـ /7م - 3هـ /9م)

لم يكن يدور بخلد أحدٍ، عندما ظهر العرب المسلمون بهداهم وهدايتهم وسلطانهم العسكري والسياسي في القرن (1هـ/7م) أن المعجزة / الثورة العربية الإسلامية ستتحقق بتلك السرعة، ويُقَيض لها ذلك. الفتح الخاطف. فقد كانت القوتان الكبرى، ذات النفوذ الأعظم في المشرق فيما بين مولد النبي العربي محمد بن عبد الله (ص) بمكة حوالي (عام 570م) ووفاته بالمدينة (يثرى سابقاً) سنة (11هـ/632م)، هما: الدولة البيزنطية (الروم) ودولة الفرس الساسانيين... وكانت فاتحة البعثة في مكة قبل الهجرة إلى يثرى... ثم جاءت بدر فأحد، ثم فتح مكة و عام الوفود، ف وفاة الرسول (ص) ... وبدأ عصر الراشدين، وقبل نهايته كان العرب قد سيطروا على بلاد الشام والعراق ومصر وفارس، ثم راح الأمويون يُوسِّعون حدود الإمبراطورية العربية الإسلامية في مختلف الأطراف... ففي أقصى الغرب، كان فتح الأندلس والتوغل في جنوب فرنسا، قبل الصدام أمام بوايته (بلاط الشهداء 114هـ - 732م)... وقد بالغ بعضهم في نصر شارل مارتل والخسائر العربية... إذ تذكر المصادر الغربية القروسطية سيطرة العرب على عدّة مواقع في جنوب فرنسا بعد ذلك لعدّة عقود.

أما في الشرق، فكان التوسع في طبرستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان والسند، وتألفت أسماء القادة محمد بن القاسم الثقفي في السند وقتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر.. ثم كانت نهاية الدولة الأموية وانتقال العاصمة من دمشق إلى الهاشمية ببغداد الرشيد والمأمون...

2- ثقافة الكونية

لم يكن زوال الوحدة السياسية للدول العربية الإسلامية، بعد سقوط دمشق وقيام الإمارة بالخلافة الأموية في الأندلس، ثم الدولة الفاطمية في المهديّة التونسية فالقاهرة، دلالةً على ضعف اجتماعي أو ثقافي... إذ كان العالم العربي الإسلامي

قد جمعت روابط شتى وازدهرت فيه مراكز حكم عديدة، شرقاً وغرباً، لكلٍ منها عالمه وبلاطه حيث الشعراء ونوابغ العلم والطب والفلك إلخ... طبعاً إضافة لقصور الخلفاء في بغداد والقاهرة وقرطبة وعظمتها وبهائها...

إن استغراق منطقة جغرافية بهذا الاتساع، من بلاد الهند والسند حتى الأندلس، عبر المجال الأفغاني / الفارسي وبلاد الرافدين والشام ووادي النيل فبلاد المغرب حتى قرطبة واشبيلية وغرناطة ومن بحر الخزر (قزوين)، حتى البحر الأحمر (الْقُلُوم) فبحر العرب في عالمٍ عربي إسلامي واحد، أدى إلى نشوء حَيَازٍ اقتصادي مشترك / مُوَحَّد، بعيد المدى، ليس بسبب أبعاده فقط، بل لأنه أدى إلى ربط حوضين بحريين كبيرين، في العالمين المِتَحَضِرِينَ أحدهما بالأخر، البحر المتوسط والمحيط الهندي... إن حركة الجيوش والتجّار وأصحاب الحِرَف والعلماء والحجّاج بين أحدهما وبين الآخر أصبحت يسيرة، وكذلك حركة الأفكار والأساليب والتقانة... وقد أمكن في قلب هذا الفلك الواسع من التفاعل، أن تتطور دول قوية ومدن عظيمة وتجارة عالمية ناشطة وأرياف مزدهرة... وأسهم كلُّ واحد من هذه العوامل في إمكانية وجود العوامل أخرى.. أما من الناحية الثقافية، فاللغة هي العربية، مع بعض الفارسية والسريانية والهندية أحياناً، أما القائمون عليها، فهم من العرب ومن مختلف أجناس العالم العربي الإسلامي... وكانت هذه الثقافة متقدمة على ما كان عليه الأمر في الجارة المنافسة، الإمبراطورية البيزنطية.. أما في الغرب الأوروبي فلا مجال للمقارنة.. فبعد اجتياح القبائل الجرمانية الهمجية التي أسقطت روما في (عام 476م)، والدمار الذي ألحقه الونداليون الجرمان بالبلاد والعباد في الغرب الأوروبي، أصبحت كلمة "VANDALISME / وَنداليّة" الفرنسية/ الإنكليزية تعني "النزعة البربرية الهمجية لتخريب الآثار الفنية والنفائس والصنائع"... وانحصر في ذلك الغرب الأوروبي، ما بقي من معارف قديمة وثقافة كلاسيكية في الأديرة لقرون... حتى بوادر عصر النهضة الأوروبية RENAISSANCE .

وكما ألحنا إليه أعلاه، فعلى الرغم من نهاية الوحدة السياسية، ازدهرت الثقافة في ذلك العالم العربي الإسلامي في (القرن 3هـ/9م)، وتفوّقت على كل الثقافات المنافسة لها في تلك الأيام تفوقاً لا نظير له...

وزاد الإقبال على الترجمة من الفهلوية والهندية والسريانية، ولكن النصيب الأكبر كان للتراث اليوناني، الذي اتسّع مداه كما سيأتي لاحقاً.

وكان أغلب المترجمين من السريان النساطرة، وفي مقدمتهم حنين بن اسحق (193هـ / 808م - 260هـ/873م) وهو طبيب نصراني سرياني وشمّاس نسطوري من قبيلة عبّاد العربية. وُلِدَ في الحيرة ودرس الطبّ في بغداد وتَصَلَّع باليونانية. عينه الخليفة المأمون على "بيت الحكمة" في بغداد... ونقل إلى السريانية والعربية العديد من المؤلفات اليونانية لأفلاطون وأرسطو وديوسقوريدس المولود في (عين زُرْبَه) الكيليكية (القرن 1م) وغيرهم... أما ثابت بن قُرْبَه (222هـ/836م - 288هـ/890م). فهو من الصابئة، وُلِدَ في حرّان، رياضي وطبيب وفيلسوف عاش في بغداد، نقل إلى العربية وشرح مؤلفات اليونان في الرياضيات والفلك... وغيرهما من المترجمين... ونبغ أيضاً من العلماء العرب والمسلمين، فيلسوف العرب الكندي وعالم الرياضيات الخوارزمي وعالم الفلك البتاني والطبيب الرازي (جالينوس العرب) والمؤرخ اليعقوبي وغيرهم من العلماء في الجغرافية والبصريات والموسيقى وفقه اللغة... وكانت بغداد منارة هذه الثقافة، وقد تجاوز ضؤؤها تخوم العالم العربي الإسلامي... وما قصّة شارلمان مع هارون الرشيد سوى بعض هذا الإشعاع العلمي...

واستمرت الفنون الدنيوية في الازدهار آنئذٍ كالشعر والعمارة والنثر... أما التجارة، فقد راجت سوقها في داخل الدولة - أو بالأحرى الدول - العربية - الإسلامية، واتصلت أسبابها بين هذا العالم وأوروبا والشرقين الأوسط والأقصى...

ليس صحيحاً ما زعمه البعض أن العرب انتشروا في فجر الإسلام في بلاد الرافدين والشام ومصر... "دخلاء" على بقاع وربوع غريبة عليهم... لقد بعث الإسلام عرب شبه الجزيرة من رقادهم... فانطلقوا حاملين مشاعل نهضة قومية عربية كبرى... وما لبثوا أن أقاموا إمبراطورية كبرى من: حدود الصين حتى بلاد الغال (فرنسة)، عبر بلاد الرافدين والشام ووادي النيل فالشمال الأفريقي بأصوله القرطاجية وحتى الأندلس... واحتكوا بالأمم الأخرى وتعرّفوا على حضاراتها وتراثها، عن طريق الاحتكاك المباشر أو النقل والترجمة، فكان الفتح العظيم... فللمرة الأولى في تاريخ البشرية، نشأ وتكوّن عالمٌ كوني الثقافة، لم تعرفه البشرية فما مضى، لا في إمبراطورية فارس الأخمينية أو عصر اسكندر المقدوني وأخلاقه السلوقيين والبطلمية، ولا حتى في أيام الإمبراطوريتين الرومانية أو البيزنطية...

3- ما أخذه العرب عن الأمم الأخرى:

خضع العرب المسلمون منذ العصر الأموي لعوامل ثقافية شتى... بعض أهلها ليس غريباً عليهم أو عن بلادهم، وذلك بحكم الجوار، كالسريان مثلاً، الذين تجسّد فيهم التراث الآرامي العظيم، حصاد حضارات الوطن العربي، منذ أكد وبابل وحتى العصر الكلدي / البابلي الحديث... قبل أن يخضعوا، منذ العصر العبّاسي الأول، لأسبابٍ وعوامل ثقافية قصّية كالفارسية والهندية واليونانية... وكان ذلك في ميادين مختلفة: لغوية / طبيّة / فلسفية / رياضية هندسية إلخ... وها هي بعض العناوين التي يظهر فيها تأثير الحضارات القديمة في التراث العربي قبل الإسلام وبعده.

أ- في اللغة:

وهنا ننوّه إلى ما أشار إليه الدكتور مسعود بوبو - رحمه الله - في دراسته⁽¹⁾ التي ميّز فيها الاختلاف بين الدخيل والمُعَمَّر، وكذلك في كتابه أثر الدخيل في

عصر الاحتجاج، [وزارة الثقافة والإرشاد القومي، إحياء التراث العربي 61، دمشق 1982، ص 21 وما بعدها..]. وقد أشار في دراسته وفي كتابه إلى ما أخذه العرب من الفرس وعن الهنود واليونان واللاتين، إن كان في العصر العباسي أو ما بعده... في المفردات وأسماء الإعلام إلخ...

ومن المفيد أن تشير إلى أن بعض أسلافنا العلماء قد جانبوا أحياناً الصواب في هذا المضمار... كابن حزم مثلاً الذي لا يُميّز بين "العبرانية" والآرامية. يقول ابن حزم في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"⁽²⁾: "إن إنجيل متى هو بالعبرانية، أما الأناجيل الثلاثة الباقية فهي باليونانية..."

ويكرّر ابن خلدون بعد ابن حزم نفس القول في المقدمة: "كتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية..." ولكن بالنسبة إلى لغة الأناجيل الثلاثة الأخرى، فابن حزم كان أفضل من ابن خلدون، الذي يتابع قائلاً "... ونقله يوحنا بن زبدي إلى اللسان اللاتيني [وهذا غير صحيح م.م.] وكتب لوقا منهم إنجيله إلى بعض أكابر الروم [الرومان ولم يفرقوا في القرن الأول م بين روم ورومان م.م.] وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة، وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه⁽³⁾.

هذه بعض الملاحظات على ما جاء لدى ابن حزم وابن خلدون :

1- معرفة ابن حزم بأخبار الأناجيل أفضل من ابن خلدون الذي يخلط الحابل بالنابل.

2- لا ندري من أين جاء ابن حزم وبعده ابن خلدون "بعبرانية" إشارة إلى لغة أهل العهد القديم، علماً أن العهد القديم لا يذكر "لغة عبرية" بل "شفة كنعان" كما نعلم (سفر أشعيا، 4/19)⁽⁴⁾... وقالوا أيضاً "يهودية، كما جاء في (سفر الملوك الثاني 26/18)، عندما حاصر الآشوريون مدينة أورشليم: "فقال الياقيم بن حلقيا وشبنة ويواح لربشاقا، كلم عبيدك باللغة الآرامية فنحن نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب القائمين على السور".

هل هي من الإسرائيليات؟ (.. ويجب القول أن معرفة يهود الأندلس بالعهد القديم كانت محدودة، ونعلم ذلك من موسى بن ميمون نفسه وغيره" ... ونعلم أيضاً أن التنزيل الحكيم لم يذكر "عبرانيين" أو لغة "عبرانية" بل أشار إلى القوم كما يلي: (44مرة/ بنو إسرائيل) (8 مرات/ يهود)، (7مرات هود).

3- يبدو ابن خلدون أكثر دراية من بعض معاصري اليوم، عندما يُوضِّح أن التوراة هي فقط الكتب الخمسة المنسوبة لموسى، بينما نظن بعضهم أن التوراة هي العهد القديم بأسفاره الثلاثين، تقريباً، وذلك لاختلاف عدد أسفار النسخة الكاثوليكية عن الشرعية اليهودية أو البروتستنتية المنسوبة إلى الألماني لوثر صاحب الإصلاح الديني.

ونقول أن لغة العهد القديم هي كنعانية وبعضها آرامي، أما كتابتها، فهي صورة عن القلم الآرامي المربع في النسخة الماسورية.

كم من مرة صنفوا الكلمة في باب الدخيل وإذ بنا نقع على جذرها الأصلي في تراثنا العربي القديم، بلغاته الأكديّة/البابلية/ الآشورية شرقاً، وبالكنعانية/ الآرامية غرباً وكذلك جنوباً في "لغات / لهجات" اليمن المعينية / السبيئة/ فالحميرية، وذلك من (الألف الرابع ق.م) وحتى صدر الإسلام... تلك اللغات واللهجات التي أطلق عليها شلوتسر، في نهاية القرن الثامن عشر اسم (اللغات السامية)... وأوضحنا مراراً أنها تسمية غير ملائمة لأسباب وأسباب⁽⁵⁾...

وكم من اسم ظنّه البعض يونانياً فإذا بنا نقع على جذره الأصيل في التراث الكنعاني الآوغاريتي، أو في غير ذلك من اللهجات الكنعانية... ونحن نعلم اليوم صلات الكنعانيين بأسية الصغرى وجزر بحر ايجة وقبرص، وهي نقاط اتصال واحتكاك مع العالم اليوناني قبل حرب طروادة.

وكذلك بعض الكلمات والأسماء التي ظنّها بعضهم فارسية الأصل... وهي في الواقع آرامية وتعود إلى العصر الفارسي الأخميثي حيث كانت السيادة لتلك "اللغة

الآرامية الإمبراطورية" ... والقاعدة المثلى في تقصي أصول الدخيل، في الانطلاق من معاجم لغاتنا القديمة: الآكدية/ البابلية/ الآشورية وغيرها من المعاجم الكنعانية فالآرامية بلهجاتها المختلفة قبل تصنيف أصلها.

ب- فن العمارة:

كم من مرة أيضاً سمعنا بعضهم: أن التخطيط الشطرنجي في بناء المدن هو إبداع يوناني. وما زال بعضهم يقرره في جامعاتنا العربية (كليات هندسة العمارة وعلم الآثار)... وكما هو معروف نسبوا إلى هيوداموس الأيوني [من مدينة مِيلْتُوس في آسية الصغرى، أصبحت منذ القرن 7 ق.م، مركزاً تجارياً وحضارياً كبيراً. وهي موطن عدد كبير من الفلاسفة والعلماء الإغريق]. فضل التصميم الشبكي الشطرنجي في هندسة بناء المدن وتخطيطها... وغاب عن بالهم تخطيط المدن في وادي النيل وبلاد الرافدين قبل هيوداموس بقرون وقرون. وفي هذا الصدد، يقول العالم الفرنسي بيير لافُدان P.LAVEDAN في موسوعته ((المعجم المصوّر للأسطورة والعاديات اليونانية والرومانية⁽⁶⁾)) بأنه ما نسب إلى هيوداموس غير صحيح، فلقد سبقه إلى ذلك المصريون القدماء في هذا الميدان... وجئنا بتفاصيل ذلك في كتابنا دمشق: الأسطورة والتاريخ، من ذاكرة الحجر إلى ذكرى البشر⁽⁷⁾... ويضيف الدكتور سليم عادل عبد الحق في كتابه الفن الإغريقي وآثاره المشهورة في الشرق: "يُظن أن (الاغورا) هي ابتكار مدني إغريقي، "أما فيما عدا ذلك من أقسام المدينة، فإن اليونانيين استوحوا في إنشاء وتنظيم مدنها مبادئ العمران التي وضعها المصريون والشرقيون منذ مدة بعيدة. ولا يخفى أن المدن الجنازية التي أنشأها فراعنة الإمبراطورية القديمة... كانت طرقها متفقة مع الجهات الأربع، وأراضيها مقسمة إلى أقسام مستطيلة أو مربعة، بحيث أن تصاميمها وتخطيطاتها تشبه شكل رقع الشطرنج. وقد نشأ على هذا الشكل كثيرٌ من مدن الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة... وكذلك فإن سكان بلاد اليونانيين استوحوا في إنشاء وتنظيم مدنها

مبادئ العمران التي وضعها المصريون والشرقيون منذ مدة بعيدة. ولا يخفى أن المدن الجنازية التي أنشأها فراعنة الإمبراطورية القديمة... كانت طرقها متفقة مع الجهات الأربع، وأراضيها مقسمة إلى أقسام مستطيلة أو مربعة، بحيث أن تصاميمها وتخطيطاتها تشبه شكل رقعة الشطرنج. وقد نشأ على هذا الشكل كثيرٌ من مدن الإمبراطوريتين الوسطى والحديثة... وكذلك، فإن سكان بلاد الرافدين ولاسيما الآشوريين اشتهروا بتنظيم مدنها، وسبقوا بعض الأمم إلى وضع وتطبيق كثير من المبادئ العمرانية في منشأتهم المدنية، وأحسن مثال يذكر دلالة على ذلك مدينة بابل التي كانت منشأة على ضفتي الفرات، والتي كانت شوارعها منظمة ومستقيمة وموازية للنهر أو عاموية عليه... وكان يوجد فيها منازل ذات ثلاثة أو أربعة طوابق، وكثير من الأبنية والأرصفة والجسور.

وعليه فإن الإغريق تلقوا دروسهم العمرانية الأولى من المدرستين المصرية والشرقية، ولا صحة لما كانوا يزعمونه أن (هيوداموس) هو أول من أوجد تصميم المدينة المنظمة، ذات الشوارع المستقيمة المتعامدة، وذات الجزر المستطيلة أو المربعة. وذلك لأن هذا التصميم كان موجوداً قبلهم.⁽⁸⁾..

ونسلم أيضاً أن أبنية بعض المدن في بلاد الشام هي من صنع الرومان، وكذلك الجسور والشوارع ذات الأعمدة والرواقين على الطرفين.. وهذا أيضاً غير دقيق التعبير وبعيد عن الصواب. فإن كان العرب، قبل الإسلام وبعده قد أخذوا عن غيرهم من الأمم القديمة، فلم يأخذوا من اليونان أو الرومان، بل من حضارات بلادنا العريقة منذ الألف الرابع (ق.م)... وهنا يجب أن نوضح بعض الغموض حول دور الإغريق وفن العمارة... فهم تلامذة وطننا العربي القديم.. فإذا استثنينا جزيرة كريت وفن عمارتها، فلا نجد في بلاد اليونان القارّية مدناً ترقى لأكثر من ألف سنة (ق.م)، بينما نجد مدناً في وطننا العربي القديم قبل المدن الإغريقية بألاف السنين... والعمود الذي نجده على نطاق واسع في العمارة المصرية منذ مطلع

الألف الثاني (ق.م) كعنصر أساسي لحمل السقوف لا نجده لدى الإغريق إلا بعد ألف سنة..

أما الرومان، فلم يكونوا خبيرين بفن العمارة وهم تلامذة الاتروسكيين المشرقين والإغريق... والإغريق كما قلنا هم تلامذة وطننا العربي القديم.. وماعدا المدن الاتروسكية التي تعود بتاريخها إلى القرن الثامن حتى القرن الخامس (ق.م)، فلا نجد آثاراً تُذكر لمدن لاتينية رومانية من تلك الفترة...

وأغلبية المدن التي وجدها العرب المسلمون في القرن الأول هـ /7م، فهي قديمة ولا علاقة للإغريق أو الرومان بها، ماعدا تلك التي أقامها السلوقيون كأنطاكية وأفاميا إلخ... وطبرية وفيليبوليس (شهباء) إلخ...

ج- في الكتابة:

تعتبر كتابتنا العربية تطوراً مديداً ومستمرّاً انطلاقاً من الكتابة الآرامية (النبطية والسريانية) والخط المسند اليمني، ولا علاقة للفرس أو الإغريق أو غيرهم بها⁽⁹⁾.

د- في الفلسفة والعلوم:

إضافةً لما جاء أعلاه عن عصر المأمون والترجمة، نود أن نستوضح جلياً أمر زعم بعضهم أن العرب لم يكونوا سوى نقلة عن الإغريق في هذا المضمار... ولكن ما هي ماهية الفلسفة؟! وما هو كُنْهها!؟

منذ عصور ما قبل التاريخ، بذل الكائن البشري ما في وسعه للتغلب على العوامل الطبيعية القاهرة المحيطة، المتحكمة بوجوده وكيانه. وتبيّن لقي وأوابد ودوائر المراحل الأخيرة لعصر الظُرّان: قديمه وأوسطه فحديثه، (25 ألف -6 آلاف ق.م).. تلك الخطوات الكبيرة التي قطعها انساننا العاقل HOMO SAPIENS في معارج ارتقائه إلى مرتبة الإنسان التاريخي. وأطلق بعضهم على بؤادر نشاطاته الذهبية هذه، اسم "ما قبل الفلسفة"⁽¹⁰⁾ وهو عنوان كتاب العالم الإنكليزي هنري فرانكفورت BEFORE PHILOSOPHY الذي لخص الموضوع بربطه عمل ذلك

الكائن البشري ونشاطاته اليومية، لتأمين مستلزمات معاشه والذود عن نفسه، ربط ذلك بنمو نشاطاته الذهنية، وبالتالي تطوّر دماغه وتعليمه ما قبل الفلسفة كان السحر والكهانة، وقبل الفلك كان التنجيم، وقبل الطب الشعبة (الشعوذة)، وقبل الكيمياء الخيمياء... إلخ

وقبل الفلسفة اليونانية، كان تراث الشرق: من الحكمة المصرية القديمة وملحمة جلجامش وسر الوجود والموت والبعث والخلود وفلسفات الهند والصين، من أوبانيشاد الهندية والطاو الصينية... وبالنسبة لكائننا، ما مغزى تلك الكفّ المحيطة. بالطرائد، التي نجد أشكالها ورسومها الملونة أو المنقورة على جدران المغاور والكهوف... وما مغزى قدسية العدد (1/3/12/7/5)⁽¹¹⁾.

قبل الفلسفة اليونانية كان عالم من الفلسفات والانجازات والحكم... جاء في الأخبار والروايات أن الكثيرين من مشاهير اليونانيين زاروا مصر اعتباراً من القرن السابع (ق.م)، وفي عدادهم عالما الرياضيات والفلسوفان (ثالس عالم الرياضيات والذي أرجع عناصر الطبيعية كلها إلى الماء) وفيثاغوراس والمشرّع ورجل الدولة الأثيني صولون وديمقريتس (فيلسوف الذرة) وأفلاطون إلخ.. ولاحظوا بأمر أعينهم أن المصريين لم يكونوا (برابرة، بل أمة عريقة في الحضارة: في الفنون وفن العمارة والعلوم إلخ.. يذكر صولون أن أحد الرهبان المصريين قال له: ((أنتم اليونانيين لستم سوى أطفال ثرثارين مغرورين ولا تعرفون شيئاً عن الماضي)) ولما اجتمع المؤرخ الجغرافي (هيقاتيوس (560-480 ق.م) بكاهن آخر وراح يفتخر في حديثه بأنه يستطيع إرجاع نسبة إلى أحد الآلهة قبل خمسة عشر جيلاً أشار الراهب بكل هدوء إلى تماثيل (354) من الكهنة الواحد منهم ابن الذي قبله وبذلك يرجع نسب الأخير منهم إلى (354 جد)... وبالنسبة للفكر الفلسفي / الديني وما يتضمنه من اعتقاد بالحساب بعد الموت، يقول هرودتس إن اليونانيين اقتبسوا عن طقوس (إيزيس /

أوزيريس) وكتاب الموتى) والمحكمة بعد الموت في العالم الآخر. وعن المصريين نقلوا أيضاً نظام الأعمدة في فن بناء المعابد إلخ...

أما عن أسلافنا الكنعانيين نقل اليونانيين بطريقة مباشرة أو عن طريق المعمرات الكنعانية التجارية المنتشرة في كل أرجاء البحر المتوسط... وقبل كل شيء كانت الأبجدية، تلك التي أطلق عليها اليونانيين اسم ((الفينيقية))... ومع الكتابة انتقلت إلى اليونانيين وسائل الكتابة ومنها ورق البردى (بايروس) المستورد من مصر... وكانت مدينة جبيل هي التي نستورد البردى من مصر وتصدره إلى العالم اليوناني، ومن هنا أطلقوا عليها اسم بيبلوس من BYBLOS / BIBLE بمعنى ((كتاب)) ومنها اسم الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

وعن البابليين أخذوا النظام الستيني للمقاييس والموازين، فاستعملوا المِنا المِبابلية التي تزن حوالي (1 كغ) في بابل، أما في العالم اليوناني فيتراوح وزنها ما بين (400 و600 غراماً)، والغريب أن معجم Larousse الفرنسي يذكر أن أصل الاسم يوناني وليس بابلياً... واتخذوا عن بابل أيضاً الساعة المائية والشمسية وكذلك مبادئ الفلك والخرائط الجغرافية وطريقة تقسيم الدائرة إلى (360 درجة) وكل درجة إلى 60 دقيقة) وكل دقيقة إلى (60 ثانية) وغيرها...

واقتبس اليونانيون هذه المنجزات عن طريق شعوب آسية الصغرى التي كانت على اتصال دائم بالبابليين والآشوريين، وفي طليعة هذه الشعوب الليديين وعاصمة بلادهم (سارْدِس) وملكهم الشهير Cresus (قارون العرب والمسلمين).

ومن الملفت للانتباه بالنسبة لتاريخ الفلسفة اليونانية وكذلك لعلم التاريخ والجغرافية، أن رواد هذين العلمين لم يكن أصلهم وميلادهم في بلاد اليونان، بل في تلك المنطقة الشهيرة باسم (ايونية) وهي واجهة آسية الصغرى على بحر إيجه وجزره، وآسية الصغرى كانت منذ عصر البرونز الوسيط (1800-1400 ق.م) على اتصال دائم ببلاد الرافدين والعالم الكنعاني... وفي هذه المنطقة كان ميلاد الشاعر

الملحي هومروس والمؤرخ الجغرافي هيقاتيوس والمؤرخ هرودوتس والفلاسفة العلماء الذين بحثوا في أصل المادة ومن أشهرهم: (أناكسوغوراس) و(أناكسيمنس) وهراقليتس ودموقريتس إلخ... وعلماء الرياضيات ثالس وفيثاغوراس والشاعرة صافو إلخ... وبعد هؤلاء جميعاً جاء فلاسفة العالم الإغريقي الأوروبي من سقراط وأفلاطون حتى أرسطو والمدرسة السفسطائية، بأساتذتها الفلاسفة الذين كانوا لا يُعلمون الآخرين إلا مقابل أجرٍ مادي إلخ...

كما ذكرنا أعلاه، نهل الفلاسفة والعلماء الإغريق الرّواد من ينابيع تراث حضارات الوطن العربي القديم، وأضفنا أيضاً أن منبتهم لم يكن في القسم الإغريقي الأوروبي (آتيكة، شبه جزيرة البلوبونسوس) بل في إيونية الآسيوية وصقلية بتراتها القرطاجي... كان ذلك قبل أن يتقوى عود أخلاقهم الآثينيين وغيرهم...

نقول قولنا هذا ونضيف أنه لم يخطر ببالنا البتّة نكران دور الفلسفة وبعض العلوم الإغريقية في عصر الترجمة، كما جاء معنا أعلاه... هذا قول... والقول الآخر هو غرابة زعم بعضهم أن العرب كانوا مجرد نَقْلَه في عصر الترجمة وما بعده... نقول هذا ضلال، يجافي منطق وسُنَنَ التطوّر: في المجتمعات وفي علوم الفلسفة واللغات وسائر العلوم التطبيقية والدقيقة والإنسانية.

وهل من المعقول أن يكون تفكير أفراد مجتمعات المدن / الدول، كما كان عليه الأمر في أغلب المدن اليونانية، المحددة المجال والأفق، كتفكير أفراد مجتمعات إمبراطورية، كما كان عليه الأمر في العصر العباسي.

4- ثقافتان وعالمان:

وها هي بعض المفارقات في التراث الثقافي لدى الطرفين: الإغريقي / الروماني والعربي الإسلامي:

○ في آثينة، النموذج الإغريقي للديمقراطية، كان يوجد (40 ألف من المواطنين الأحرار) في حين يرتفع عدد العبيد إلى (110 آلاف عبد) والمواطنون

الذين ينتسبون إلى إحدى القبائل اليونانية بال (دم) لهم حق ممارسة الحقوق السياسية، بينما الأحرار غير الآثيين، فهم محرومون من هذه الحقوق، ويضاف إليهم طبعاً العبيد... فالحق هنا له علاقة بالعرق اليوناني، وغير اليوناني "الأعجمي" لا يصلح إلا للعبودية... والمعروف أن بريكلس، الذي حكم في آثينة لعشر السنين، والمعتبر من قبل الأوروبيين كأفضل رجل حكم ديمقراطي، (القرن الخامس ق.م) قد راح يتقصى أصول الأحرار في آثينة، وقلص عددهم لأنهم ليسوا آثنيين أصلاً بالدم... أما في اسبارطة الارسنقراطية، فكان الوضع أكثر قساوة، ويعتبر العبد "حيواناً"، وإذا وجدوه خارج مكان إقامته بعد غروب الشمس، فيحق لأي اسبارطي حرّ قتله... والحرّ في آثينة له اسم محقر (METOIKOS)، إن لم يكن من أصل آثيني عرقياً وبالدم.

جاء في التنزيل الحكيم ﴿ يا أيها الناس، إنّنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات 13).

وعن رسول الله (ص) في وسط أيام التشريق: ((يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر.. إلا بالتقوى)) (12).

كما نرى، لم يأت ذكر العرب أو المسلمين أو المؤمنين، بل "الناس" على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.. فليس للون ولا للجنس أو محتد من حساب في الميوان... هذا ليس موقف ديني فقط بل هو من صميم فلسفة الوجود وماهية الإنسان.

○ في القانون الروماني مبدأ أساسي وهو ABUSUS NON TOLLIT USUM بمعنى "سوء الاستعمال لا يلغي حق الاستعمال". أي أنه يحق للمالك أن يسيء الاستعمال في العقار وفي الإنسان (الرقيق) وما شابه ذلك...

○ أما بالنسبة للعبد (الرقيق)، فالنظرة إليه تختلف اختلافاً جذرياً بين العالمين الشرقي والغربي منذ أقدم العصور... ففي شريعة حمورابي (المادة 175-176 يحق للعبد أن يتزوج حتى من امرأة حرة، وبذلك يكون عائلة شرعية، ويمكنه أن يقيم دعوى أمام القضاء ويمكنه أن يمارس مهنة ويوفر مبلغاً من المال ويفتدي نفسه، فيصبح حراً⁽¹³⁾ إلخ... أما بالنسبة للعالم الإغريقي، فالأمر أفضل عما كان عليه في الدولة الرومانية؛ وعلى الرغم من ذلك، فبالنسبة لأفلاطون، العبد خطر وشيرير بطبيعته، أما أرسطو فيعتبره "آلة / حيواناً ناطقاً"⁽¹⁴⁾.

أما في الدولة الرومانية، فشروط وجود الرقيق كانت قاسية جداً بل رهيبية، إلى درجة أنهم فضلوا أحياناً الموت على الحياة. وذات مغزى قصة العبد الذي لا يهاب الموت ولكنه يرجو سيده أن لا يلقيه فريسة لسماك الشبق MURAENA وقام هؤلاء العبيد بعدة انتفاضات، أعنفها ثورة سبارتاكوس (73-71 ق.م) التي هدّدت روما في عقر دارها... وبعد فشل الثورة كان انتقام رومة مرعباً، إلى درجة أنهم صلبوا (5000 عبداً قبل أن يحرقوهم)...

في القانون، لم يكن للعبد لدى الرومان أي حق أو صفة حقوقية "فهو شيء" لا حقوق له "شخصية / عائلية" فلا يحق له عقد قران شرعي وتأسيس عائلة... وإن حصل على مالٍ ما بعمله فهو لسيد.. ولا يحق له أن يحضر جلسة محكمة، وحق الموت والحياة بيد سيده".⁽¹⁵⁾ .. إلخ.

أما في الإسلام فالأمر جليّ واضح، فمع إجازته للرقيق، لعزامل وظروف موضوعية في ذلك العصر، فقد ألزم مالك الرقيق بشروط دقيقة... روى بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه أن رسول الله (ص) قال في حجة الوداع ((أرّقاءكم، أرّقاءكم، أرّقاءكم، أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، فإن جاؤوا بذنب لا تُرِيدون أن تغفروهم فبيعوا عباد الله ولا تُعذّبوهم))⁽¹⁶⁾.

أما دور الثقافة العربية في العصر الوسيط فنلخصه بما جاء لدى روجه غارودي في رائعته "كيف أصبح الكائن البشري إنساناً" يقول: (IL EST REMARQUABLE, QUE 'LE, PRÉCURSEUR DES MÉTHODES D 'OBSERVATION ET D 'EXPÉRIMENTATION EN OCCIDENT, T, ROGER BACON (1214-1291) QUI AVAIT ÉTUDIÉ L 'ARABE, A ÉCRIT QUE LA CONNAISSANCE DE LA LANGUE ET DE LA SCIENCE ARABES ÉTAIT POUR SES CONTEMPORAINS LA SEULE POSSIBILITÉ D 'ACCÈS À LA CONNAISSANCE (17) VÉRITABLE))

ونترجم: "الجدير بالملاحظة، أن رائد مناهج الرصد والتجريب في الغرب رُوجه بيكون (1241 - 1291)، والذي درس اللغة العربية قال إن معرفة اللغة والعلم العربيين هما بالنسبة لمعاصريه الوسيلة الوحيدة إلى المعرفة الحقيقية (المطلقة)".

5- الخلاصة:

أولاً: عندما انتشر العرب المسلمون اعتباراً من النصف الأول من القرن (1هـ/7م)، في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، لم يكونوا غرباء / دخلاء، فلتلك البقاع صلات مع شبه الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ. وما تم اكتشافه مثلاً في رأس /شجرة (أوغاريت) يؤكد العلاقات بين الشمال السوري وبلاد اليمن، قبل البعثة الإسلامية بعشرات القرون، والعلاقات مع وادي النيل أصبحت معروفة أيضاً، عن طريق البحر الأحمر (الْقُلْزُم) وشبه جزيرة سيناء إلخ...

ثانياً: في مجال اللغة والكتابة، ما أخذه العرب عن الأمم القديمة الغربية: فارس /الهند/ الإغريق واللاتين محدود، بينما المقارنة المعجمية الخاطفة تبين قرابة لغوية مدهشة بين عريبتنا (التنزيل الحكيم / الأدب الجاهلي إلخ...) مع اللغات العربية القديمة: الأكديّة / البابلية / الآشورية / الكنعانية / الآرامية إلخ... أما الكتابة، فهي إبداع بلادنا وهنا نشأت وتطورت مختلف الأبجديات الكونية.

ثالثاً: في الميدان الثقافي، نشأت لأول مرة في تاريخ الإنسانية ثقافة كونية، لم يعرفها البشر قبل العالم العربي الإسلامي، الممتد من الهند حتى تخوم فرنسا.

رابعاً: المعجزة اليونانية كما تصوّرها الغرب الأوروبي لا أساس لها من الصحة، وهي عرقية / عنصرية المذهب في الأصول والفروع... ولولا التراث الثقافي العريق لوطننا العربي القديم منذ فجر التاريخ، لما كانت النهضة اليونانية كما جاءت اعتباراً من القرن الثامن (ق.م)، منطلقة من ربوع لها علاقة مباشرة مع وطننا العربي (آسية الصغرى) ويمكننا أن نقول لهم، (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا).

خامساً: في القانون وفي الفلسفة تفوح رائحة العنصرية وكذلك في النظرة إلى الإنسانية عبداً كان أم حراً، كما رأيناه في العالمين اليوناني/ الروماني، بعكس ما وجدناه من أيام حمورابي وشريعته وحتى الإسلام. أما ما جاء في التنزيل الحكيم ﴿... وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا...﴾ فيصلح لأن يكون شعار هبة الأمم المتحدة... في أيامنا هذه.

6- المصادر والمراجع

- 1- الدكتور مسعود بوبو، ما أخذه العرب عن اللغات الأخرى، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العددان 71-72، ربيع الأول 1418هـ/ تموز (يوليو) 1998م. ص 67 وما بعدها.
- 2- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر والدكتور عبد الرحمن عُمَيْرَة، دار الجيل، بيروت 1405هـ/ 1985م ج2، ص 13 وما بعدها.
- 3- ابن خلدون، المقدمة، دار الشرق العربي، حلب 1425هـ/ 2004م. ص 214.
- 4- نسخة العهد العيق المعتمدة هي: الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت. 1960.

5- انظر، محمد محفل، المدخل إلى اللغة الآرامية، منشورات جامعة دمشق،
الطبعة الخامسة، 1411-1412هـ / 1991م. صفحة 5 وما بعدها؛ وكذلك
دراستنا، "العربية لغةً وكتابةً" اتحاد الكتاب العرب، العددان 71-72، ربيع الأول
1418هـ/تموز (يوليو) 1998م، ص 45/25.

6- PIERRE LAVEDAN, DICTIONNAIRE ILLUSTRÉ DE LA
MYTHOLOGIE ET DES ANTIOQUITÉS GRECQUES ET
ROMAINES, LIBRAIRIE HACHETTE PARIS 1931. PP. 1005-1008.

7- محمد محفل، دمشق الأسطورة... والتاريخ، من ذاكرة الحجر إلى ذكرى
البشر، إصدارات الأمانة العامة، دمشق عاصمة الثقافة العربية 2008، صفحة
132 وما بعدها.

8- الدكتور سليم عادل عبد الحق، الفن الإغريقي وآثاره المشهورة في الشرق،
مطبوعات مديرية الآثار العامة في سورية، دمشق 1399خ- / 1950م. صفحة
38 وما بعدها.

9- لمزيد من المعلومات انظر دراستنا المذكورة أعلاه رقم (5) العربية لغة
وكتابة.

10- HENRI FRANCFORT, BEFORE PHILOSOPHY, PELICAN
BOOK, LONDO 1964 .

11- لمزيد من المعلومات، انظر محمد محفل، دمشق الأسطورة والتاريخ...
(سّر قدسية العدد رقم (7)، صفحة 237).

12- سميرة الزايد، الجامع في السيرة النبوية، م 4، المطبعة العلمية. بدون
تاريخ، ص. 427.

13- JEAN GAUDEMET, DE L'ANTIQUITE P.P.,33-34,45.

14- IBID., P.198.

15- IBID.,P.P.552-554,605, ECT...

16- سميرة الزايد، الجامع في السيرة النبوية، صفحة 431.

ROGER GARAUDY, COMMENT L'HOMME DEVINT -17
HUMAIN, ED. J.A. PARIS 1978,P.208.

1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17